

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات الأستاذ: دندان عبد القادر

مقدمة:

أصبح الإسلام اليوم مكونا رئيسيا في المجتمعات الأوروبية، حيث تحصي أغلبية الدول الغربية وجودا كبيرا للجاليات الإسلامية على أراضيها لأسباب تاريخية و أخرى تتعلق بحركات الهجرة الواسعة للمسلمين نحو أوروبا، و يترافق هذا الحضور في وقتنا الحالي بتنامي نوع من الخوف الهستيري من كل ما هو إسلامي، أو ما يعرف بـ "ظاهرة الإسلاموفوبيا".

و إذ تعتبر فرنسا من بين أكثر الدول الأوروبية استقطابا للجاليات الإسلامية خاصة المغاربية منها، أين يعد الدين الإسلامي اليوم الدين الثاني في البلاد بعد المسيحية، و أمام تصاعد المد اليميني، و تنامي مظاهر الكراهية و العداء لكل ما هو إسلامي، فمن الضروري تتبع حالة الإسلام و المسلمين اليوم في فرنسا، و الوقوف على مدى تأثيرهم بظاهرة الإسلاموفوبيا المترامنة مع وصول اليمين إلى السلطة ممثلا في الرئيس "نيكولا ساركوزي" زعيم حزب "الإتحاد من أجل حركة شعبية"، و تبنيه رفقة وزيره للهجرة و الهوية الوطنية "إريك بيسون" فكرة إقامة حوار مطول و معمق حول ثوابت و مميزات الهوية الفرنسية، و لكن المفارقة أن الحوار الذي أريد به تدعيم الوحدة الوطنية الفرنسية يتجه اليوم نحو خلق تصدعات في المجتمع الفرنسي، بسبب استغلاله في تنمية ثقافة الكره تجاه المسلمين خصوصا و تصعيد مستويات الإدراك السلبي تجاه الإسلام، و منه تدعيم موجة "الإسلاموفوبيا" التي تجتاح أوروبا عموما.

لذلك فالإشكالية تدور حول الأبعاد و الأهداف الحقيقية لحوار الهوية في فرنسا، فما هي الأهداف الحقيقية وراء إقامة حوار حول الهوية الوطنية في فرنسا بعد أكثر من قرنين من إعلان ميلاد الجمهورية و إرساء دعائم الدولة العلمانية؟

الأستاذ: دندان عبد القادر

و هي الإشكالية التي تتفرع عنها جملة من التساؤلات الضرورية في التحليل: هل إقامة مثل ذلك الحوار أملتة فعلا رغبة صناع القرار الفرنسيين في تأكيد ثوابت الهوية الفرنسية لضمان تماسك المجتمع الفرنسي المتعدد الأطياف عرقيا و دينيا؟ إلى أي مدى يمكن النظر إلى هذا الحوار على أنه انعكاس لموجة "الإسلاموفوبيا" التي تجتاح الغرب عموما و فرنسا خصوصا؟ و هل لنا أن نصنف القرارات المتعاقبة بشأن الحجاب و النقاب ضمن سياسة منظمة تستهدف الإسلام في فرنسا بعد تنامي هستيريا التخوف من أسلمة البلاد؟ و كيف يمكن أن ينحرف هذا الحوار عن أهدافه المعلنة و يستغل سياسيا و يأخذ بعدا عنصريا؟

1- مفهوم و خلفيات ظاهرة الإسلاموفوبيا: وفر عنصر "غياب التسامح مع الآخر" أرضية لظهور أدبيات جديدة في مختلف فروع العلوم الاجتماعية، و آثار الكثير من السجلات الفكرية و الثقافية، و النقاشات حول "الإسلاموفوبيا" (Islamophobia) تعد واحدة من بين الميادين التي سيطرت على انشغالات عدد كبير من المفكرين طيلة السنوات العشر أو حتى الخمس عشرة الأخيرة.

شاع استخدام مصطلح "الإسلاموفوبيا" بعد استخدامه لأول مرة سنة 1997 من طرف منظمة بريطانية تعرف باسم (The Runnymede Trust)، و ذلك في تقريرها الموسوم بـ "الإسلاموفوبيا: تحدي لنا جميعا"، و جاء فيه تعريف "الإسلاموفوبيا" على أنها: "رؤية أو تصور يتضمن بغض وكره غير مؤسس للمسلمين، يتجسد في ممارسات إقصائية و تمييزية"، و رغم أن تعريف هذه المنظمة ضمن شيوع تداول هذا المصطلح في مختلف الأوساط، إلا أن هنالك من يعيد أول ظهور موثق لهذا المصطلح إلى مجلة (Insight) الأمريكية سنة 1991 في موضوع ذو علاقة بالنشاطات الروسية في أفغانستان.

و بغض النظر عن هذا الجدل، فاستعمال هذا المصطلح من قبل المنظمة البريطانية المذكورة يعود حسب القائمين عليها إلى سببين: أولا: وصف تجربة المجموعات التي تقع خارج طائفة الفئات العرقية (المسلمين)، لإظهار التمييز و عدم المساواة الناتج عن ظروف بنيوية غير مواتية. ثانيا: الاعتراف بوجود الإسلاموفوبيا و تحديها⁽¹⁾.

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

و جاء أيضا في التقرير المرجعي لهذه المنظمة أن: "الإسلاموفوبيا هي مصطلح يشير إلى عداوة غير مؤسسة تجاه الإسلام، و يشير أيضا إلى الانعكاسات العملية لتلك الكراهية في شكل تمييز غير عادل تجاه المسلمين جماعات و فرادى، و في صورة إقصاء للمسلمين من السياق العام للشؤون السياسية و الاجتماعية... كلمة "إسلاموفوبيا" تم استحداثها لأن هنالك واقع جديد يحتاج إلى تسمية و توصيف".

كما وضع "روديغي" (Rudiger) تصوره الخاص لهذه الظاهرة القائم على اعتبارها نوعا من العنصرية، إذ يقول: "الإسلاموفوبيا هي تغذية لكراهية عنصرية ضد الشعوب ذات الأصول الشرق أوسطية و العربية و الجنوب آسيوية، و التي تستند بدورها على أحكام عنصرية مسبقة و كراهية للأجانب"⁽²⁾.

و في عام 2007 أطلق عمدة لندن مشروعا لدراسة الإسلاموفوبيا أسماه "البحث عن أرضية مشتركة: المسلمون، غير المسلمون و وسائل الإعلام البريطانية"، راجع هذا المشروع تعريف منظمة "The Runnymede Trust" للإسلاموفوبيا و وصفها بـ: "طريقة مختصرة للإشارة إلى مقت أو كره الإسلام، و بالتالي الخوف من أو كراهية كل أو أغلبية المسلمين".

و تعرف "الإسلاموفوبيا" بالرجوع إلى الموقع الإلكتروني لقاموس أوكسفورد الإنجليزي على أنها: "كراهية أو خوف من الإسلام، كقوة سياسية خصوصا، أو عداوية و تحامل على الإسلام"، و من الناحية اللغوية فمصطلح "إسلاموفوبيا" حسب "قاموس أوكسفورد لتعليم الإنجليزية" (The Oxford Advanced Learner's Dictionary) مكون من كلمتين "إسلام" (Islam) و "فوبيا" (Phobia)، و تعني كلمة "فوبيا": "خوف كبير و غير معقول، أو كراهية شيء ما"، على ضوء هذا المعنى فالإسلاموفوبيا ستكون بمثابة: "خوف كبير و غير معقول من الإسلام، أو كراهية للإسلام"⁽³⁾.

و عرفت هذه الظاهرة في التقرير الثاني لمنظمة المؤتمر الإسلامي حول "الإسلاموفوبيا" الصادر سنة 2009، بأنها: "الانتشار المعاصر للتمييز ضد المسلمين و لحملات تشويه الإسلام، التي تعود في جزء منها لسوء فهم الإسلام في

الأستاذ: دندان عبد القادر

الغرب، و الأحكام الخاطئة التي تربطه بالإرهاب، و عدم التسامح مع المعتقدات الأخرى، و عدم ديمقراطية قيمه و ممارساته، و قمعه لحرية التعبير، و تقويضه لحقوق الإنسان⁽⁴⁾.

و مهما اختلفت التعاريف فإنها تشير في مجملها، إلى:

* مشاعر الخوف و الكراهية و العداء تجاه كل ما هو إسلامي.

* عدم وجود مبررات و مرجعيات مؤسسة و منطقية تبرر هذا التحامل.

* الارتكاز على أحكام مسبقة، ذات صبغة عنصرية و تنم عن جهل بحقيقة الإسلام.

إن "الإسلاموفوبيا" المستشرية اليوم في الغرب عموما، يمكن تتبع جذورها العميقة في التاريخ الصراعى الطويل بين الإسلام و المسيحية، و عبر خلفيات حضارية و فكرية ترجمها مختلف الأطروحات المؤكدة على الطابع العدائى للعلاقة بين الإسلام و الغرب.

فمن الناحية التاريخية تعد "الإسلاموفوبيا" مصطلح جديد يعبر عن خوف قديم يجد جذوره في تاريخ الحروب الممتدة على مدار قرون بين المسلمين و الغربيين، فالعرب المسلمون حققوا توسعا خارجيا من أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن، و أسسوا حكما إسلاميا في شمال إفريقيا و شبه الجزيرة الإيبيرية و الشرق الأوسط و بلاد الفرس و الشمال الهندي... ثم في أواخر القرن الحادي عشر أكد المسيحيون السيطرة على غرب البحر المتوسط حين أخضعوا صقلية و استولوا على طليطلة، و في عام 1095 بدأ المسيحيون الحروب الصليبية التي امتدت لقرن و نصف... و في نفس الوقت الذي فقد فيه المسلمون قرطبة سنة 1291، ظهر العثمانيون الذين أضعفوا بيزنطة ثم أخضعوا البلقان و كذلك شمال إفريقيا، و استولوا على القسطنطينية سنة 1453، و حاصروا فيينا سنة 1529... و لكن مع حلول القرن الخامس عشر استعاد المسيحيون إيبيريا (الأندلس) تدريجيا، و ساعدت الاختراعات الأوروبية البرتغاليين و بقية الأوروبيين فيما بعد على تطويق المسلمين في أراضيهم و تغلغلوا في المحيط الهندي، و انتهى الروس من وضع حد لفترتين من حكم التتار المسلمين، فيما تقدم

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

العثمانيون لحصار فيينا مرة أخرى سنة 1683 و فشلوا في ذلك لتبدأ رحلة تراجع طويل... انتهت بتحول العثمانيين إلى رجل أوروبا المريض، لتبدأ حقبة استعمارية غربية للدول الإسلامية، ما فتئت أن تراجع فيما بعد... و ساعد انهيار الاتحاد السوفياتي في ظهور مجتمعات إسلامية إضافية في آسيا الوسطى⁽⁵⁾. من الناحية الحضارية، لطالما اعتزت أوروبا بمركزيتها (Eurocentrism) التي شكلت القاعدة لاتجاه فكري يعتقد أن الحضارة الإنسانية بنيت أساسا على سيطرة روما و باريس و أثينا، و أن ازدهار المجتمع البشري يعود إلى التفكير الأوروبي... و الواقع أن المركزية الأوروبية قد أسست على وجهات نظر عنصرية، ترافقت مع نوع من التخوف الهستيري من المفكرين الموثوق بهم من العالم الإسلامي، و هكذا تكون المركزية الأوروبية متجذرة في الخوف غير المؤسس من الإسلام و أعمال المسلمين⁽⁶⁾.

و على مستوى الإنتاج الفكري و الأكاديمي، ظهرت الكثير من الأطروحات و المؤلفات التي بلورت الوعي بالتمايز بين الإسلام و الغرب و شكلت الأدبيات الأولى المنظرة للكرهية تجاه الإسلام و المسلمين، مثل كتاب "النزعة الشرقية" (Orientalism) لإدوارد سعيد سنة 1978، الذي أكد التحامل المستمر للمركزية الأوروبية ضد الشعوب العربية الإسلامية و ثقافتها، و قسم العالم إلى شرق و غرب، و قبل ذلك كان "نورمان دانيال" سنة 1960 قد بلور الفروق بين القوتين المتعارضتين، و بين كيف أن المسيحيين الأرثوذكس ينظرون للإسلام كدين خارج سجل التاريخ... و في عام 1992 كان كتاب "التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة؟" للمؤلف "إسبوزيتو"، واضحا في الاعتراف بالاختلافات الإيديولوجية بين الإسلام و الغرب و إمكانية تشكيلها لعامل صراع بينهما⁽⁷⁾.

بينما تبقى أطروحة "صدام الحضارات" (The clash of civilizations) لصامويل هنتنغتون 1996، أكثر الأعمال تأثيرا بتركيزها على دور العامل الحضاري في تشكيل عالم ما بعد الحرب الباردة، حيث يعطي اهتماما أكبر للقيم الدينية و الثقافية بتعويض الحاجز الثقافي المخملي للجدار الحديدي، أين توجد أخطر الجبهات في خضم الصراعات التاريخية و الثقافية بين الحضارتين المسيحية

الأستاذ: دندان عبد القادر

و الإسلامية... منطلقا في ذلك من الافتراض بأن الإسلام يتحدى الميراث الإغريقي المسيحي اليهودي الذي وجد الغرب على أساسه⁽⁸⁾.

ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 لتعلن بداية التوجس العلني من الإسلام و المسلمين عبر العالم، و ربط الإسلام بالإرهاب و وسم كل مسلم و عربي بصفة الإرهابي، لتبلغ الإسلاموفوبيا أوجها على الصعيد العالمي.

2- بدايات حوار الهوية الوطنية في فرنسا: بحلول الألفية الجديدة، قدر عدد المسلمين في فرنسا بحوالي خمسة ملايين مسلم، ليشكل الإسلام ثاني أكبر ديانة في فرنسا بعد المسيحية، و أصبحت وضعية المسلمين جزء لا يتجزأ من شؤون السياسة الداخلية الفرنسية⁽⁹⁾.

و رغم عدم وجود إحصائيات رسمية بشأن أعداد المسلمين بالضبط لأن القانون الفرنسي يمنع أي إحصائيات على أساس ديني، إلا أن هنالك أرقام تشير إلى أن أعداد المسلمين في فرنسا اليوم تفوق الخمسة ملايين نصفهم يعتبرون مواطنين فرنسيين حاملين للجنسية الفرنسية⁽¹⁰⁾.

و مازال صعبا على عدد كبير من الفرنسيين اليوم تقبل هذه الحقيقة الديموغرافية، و غالبا ما يبدأ و ينتهي النقاش حول المسلمين في فرنسا باعتبارهم مشكلة اجتماعية، و السؤال الذي يطرح غالبا أيضا هو: هل يمكن للمسلمين الاندماج في المجتمع الفرنسي؟ و هذا السؤال منبثق من الاعتقاد السائد بالتعارض الموجود بين القيم الإسلامية و نظيرتها الغربية و بتشكيل المسلمين لفئة خطيرة⁽¹¹⁾. هذا التخوف من إمكانية عدم اندماج العدد الهائل للمسلمين في المجتمع الفرنسي، و من احتمال تمسكهم بقيمهم و تأثيرهم على النسيج الاجتماعي الفرنسي، كان من بين أسباب طرح فكرة فتح حوار حول الهوية الوطنية الفرنسية.

حيث أعلنت "وزارة الهجرة و الاندماج و الهوية الوطنية الفرنسية" بقيادة الوزير "إريك بيسون" فتح ما أسمته (حوارا وطنيا كبيرا يتعلق بتحديد ماهية الهوية الوطنية الفرنسية)، و يعمل هذا الحوار الذي يدوم شهرين (جانفي- فيفري 2010) على الإجابة حسب البيان الرسمي للوزارة عن تساؤلين: الأول و

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

هو: "ماذا يعني أن تكون فرنسيا اليوم؟" أما الثاني فهو: "ماذا قدمت الهجرة بالنسبة لكم؟"، كما يطرح الحوار إعادة فهم العديد من المصطلحات التي ارتبطت بالجمهورية الفرنسية، مثل: الوطن- العلمانية- التضامن الوطني- إمكانية أن ينشد أطفال المدارس مرة في العام المارسيياز (النشيد الوطني الفرنسي)، و هو الحوار الوطني الكبير الذي يعقد في كل مديرية من مديريات المدن الفرنسية، و في المقاطعات الفرنسية لما وراء البحار في منطقتي المحيط الهادي و الكاريبي، بمشاركة مسؤولي المديريات و برلمانيين و ممثلين عن القوى السياسية و النقابات و منظمات المجتمع المدني و المجالس الطلابية و المثقفين و المواطنين العاديين⁽¹²⁾.

ومنذ الإعلان عن بدء الحوار تم تنظيم أكثر من 340 لقاء في جميع أنحاء البلاد، وقد زار الموقع الخاص لهذا النقاش 750 ألف شخص، و خلال الأسابيع الأولى تسلم الموقع عدد هائل من ردود الفعل العنصرية، وقررت المعارضة الاشتراكية مقاطعة اللقاءات لأنها رأت أنها تسيء إلى المهاجرين والمسلمين كثيراً، و لم يتورع أعضاء من حزب "الإتحاد من أجل حركة شعبية" اليميني الحاكم عن الإدلاء برأيهم بشكل يفتقر للباقة، فأحد وزراء الدولة طالب الشباب المسلم بأن يسيروا في الاتجاه العام للمجتمع إذا كانوا يريدون إيجاد عمل على الأقل، واشتكى رئيس بلدية مرسيليا من نزول الكثير من المسلمين إلى الشارع بعد مباراة لكرة القدم، كما أدلى "جون ماري لوبان" زعيم حزب الجبهة الوطنية المتطرفة برأيه قائلاً: "علينا أن نكون جريئين بتوجيه الأسئلة الحقيقية المتوارية خلف سطور هذا النقاش حول الهوية الوطنية، علينا بالأحرى طلب العون، فقد تم تهيمش تقاليدنا وثقافتنا وهويتنا بسبب الهجرة"⁽¹³⁾.

3- دلالات فتح حوار حول الهوية الوطنية: أثار قرار السلطات الفرنسية القاضي بفتح حوار حول الهوية الوطنية بعد أكثر من قرنين على قيام الثورة الفرنسية و تأسيس الجمهورية و تبني المبادئ العلمانية تساؤلات كثيرة و مشروعة، تمحورت حول المغزى من طرح مثل هذا الإشكال في هذا الوقت بالذات، فالأكيد أن للموضوع أبعاد و دلالات أخرى غير معلنة، يمكن تلمسها من خلال تحليل طبيعة

الأستاذ: دندان عبد القادر

الخطاب الذي ساد طيلة مدة الحوار، وما أفرزه من تداعيات لاحظها المراقبون المهتمون بالموضوع، وأهمها:

1-3 تموقع الإسلاموفوبيا في قلب الحوار الهوياتي الفرنسي: إن التواجد الإسلامي المكثف في فرنسا و تمثيله لثاني ديانة بعد المسيحية، و تشكل أغلب أفراد الجالية المسلمة من المغاربة القادمين من المستعمرات الفرنسية السابقة في شمال إفريقيا و خاصة من الجزائر، أعطى الانطباع بأن المقصود من هذا الحوار هم المسلمون و ديانتهم الإسلامية بالدرجة الأولى.

فقد تحول النقاش من الإجابة عن السؤال المركزي "من هو الفرنسي؟" إلى المطالبة باندماج المسلمين بفرنسا و احترام القيم المسيحية للبلاد، و بالتالي كشف عن الوجه الحقيقي لغاية الحوار، كما شكل تحولا ينبئ بعدم براءة السؤال المطروح منذ البداية و النتائج الخطيرة التي يمكن أن يؤدي إليها... و تأكد ذلك مع المقال المطول للرئيس "نيكولا ساركوزي" على صفحات جريدة "لوموند" ليوم 9 ديسمبر 2009، أين ربط بين النقاش الجاري حول الهوية الوطنية و علاقة فرنسا بالإسلام، و رغم محاولته طمأنة المسلمين بقوله أنه: "سيبقى ضامنا لحرية ممارسة عقائدهم في أماكن عبادة لائقة بهم"، إلا أنه دعاهم إلى: "احترام القيم المسيحية و عدم استفزاز مشاعر المضيف"، على اعتبار أنهم قادمون من بعيد⁽¹⁴⁾.

إن الوقائع تدل أن المستهدف من خلال إثارة الحوار حول "الهوية" هم العرب و المسلمون دون غيرهم، ذلك أن الأمر إن خرج عن هذا الإطار فسيكون "ساركوزي" ذاته المتضرر الأول بما أنه ذو أصول مجرية تبتعد كثيرا عن المجال "الفرانكفوني" الذي تنتهي إليه الغالبية الساحقة من عرب و مسلمي فرنسا، و أن المحرك الأساسي للحوار الفرنسي حول الهوية ليس سوى ظاهرة "الإسلاموفوبيا" الصاعدة في الغرب عموما و في القارة العجوز بشكل خاص، تلك الظاهرة التي تغذيها الصهيونية العالمية بما تملك من ترسانة إعلامية و مالية في العالم، وكذلك بواسطة اللوبي الصهيوني الذي يخترق أغلب دوائر السلطة و النفوذ و القرار في العالم، ولا أدل على ذلك مما سبق هذا الحوار من ضجيج إعلامي حول قضايا مثل قضية "الحجاب" و من بعده "النقاب"، و مهما كانت أسباب بروز و انتشار

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

ظاهرة "الإسلاموفوبيا" سياسية كانت أو دينية أو إيديولوجية فإنها تبقى ظاهرة عنصرية عرقية بالدرجة الأولى، ومن هنا فلا يمكن أن يفهم خطاب الهوية في سياق هذه الظاهرة إلا بكونه خطاب صدامي غايته القصوى إثبات الذات بنفي الآخر⁽¹⁵⁾.

ويؤكد المؤرخ الفرنسي الكبير "بنجمان سطورا" في حوار له مع صحيفة الإتحاد الاشتراكي المغربية غداة انطلاق هذا الحوار أن الإسلام في فرنسا أصبح هو محور النقاش الدائر، إذ يقول: "المشكل المطروح ليس هو النقاش الجاري حول الهوية الوطنية بفرنسا، بل المشكل هو المعنى الذي أضفي على الهوية بالإضافة إلى وتيرة هذه النقاشات، وبسبب سرعته تحول النقاش من حوار حول الهوية إلى حديث عن الأجانب و الدين وعلى الخصوص الإسلام، ففي ظرف ثلاثة أسابيع تحول النقاش إذن من حوار حول مكانة الهوية إلى كلام عن مكانة الإسلام بفرنسا، أي أن الإسلام صار العنصر الأساسي في النقاش بينما هو مجرد مكون من مكونات بلد من المفترض أنه لاثني، بلد يندرج الانتماء الديني به في نطاق الحياة الخاصة هذا الانحراف هو الذي يطرح مشكلا في هذا النقاش".

ويذهب "بنجمان" في نفس الحوار إلى أنه من الطبيعي أن يشعر المسلمون وخاصة المغاربة بأنهم المستهدفون من كل هذه الضجة رغم التواجد المغربي و الإسلامي في فرنسا منذ أزيد من قرن، فيقول بهذا الخصوص: "الحضور المغربي في فرنسا يعود إلى زمن بعيد، وهو ما يجله عدد كبير من الناس، وفي اعتقادي لا بد من أن يصبح وجود الإسلام أمرا جادا هنا، ذلك أن العمال المغاربة حلوا بفرنسا منذ العشرينيات من القرن الماضي، ومسجد باريس شيد سنة 1926، والمستشفى الفرنسي الإسلامي ببوبيني تم إنشاؤه في سنة 1935، والمقابر الإسلامية وجدت منذ سنة 1937، هناك إذن معركة حقيقية يجب خوضها من أجل أن يصبح الإسلام معطى عاديا جدا بفرنسا"⁽¹⁶⁾.

إن مشاعر التوجس من الإسلام في فرنسا، بدأت تتزايد مع بروز مظاهر اعتبرت دليلا على تجدد وصحة الشعور الديني لدى مسلمي فرنسا في نهاية الثمانينيات، أين شرع المهاجرون المسلمون في بناء المساجد، و فتح محلات و قصابات بيع

الأستاذ: دندان عبد القادر

اللحم الحلال، و المطالبة بأراضي لتكون خاصة بمقابر المسلمين، فسيطر الشعور بالخوف من عودة الإسلام بين غالبية الشعب الفرنسي... كما ساهم في ذلك التوجس الفشل في إدراك الفروق الاجتماعية والثقافية بين المسلمين، فالكثير من الفرنسيين ربطوا بين المظاهر الإسلامية المتزايدة محليا، و صعود الإسلام السياسي في العالم العربي و الإسلامي، فوضعوا المسلمين الفرنسيين المعتدلين في نفس المكانة مع الحركات الأصولية العنيفة⁽¹⁷⁾.

و تجسد هذا الخوف المبالغ فيه من كل ما هو إسلامي في كثرة الاعتداءات و المضايقات التي أصبحت تتعرض لها الجالية الإسلامية و أماكن عبادتها و حتى مدافنها، من طرف جماعات متطرفة و عنصرية تعكس حالة الاضطراب و التوتر المسيطرة على المجتمع الفرنسي المنجرف شيئا فشيئا نحو "الإسلاموفوبيا" بكل ما تحمله من مخاطر، ففي تقرير "المركز الأوروبي حول العنصرية و كراهية الأجانب" (EUMC) التابع للإتحاد الأوروبي و المهتم برصد حالة العنصرية و كراهية الأجانب في دول الإتحاد، جاء التقرير السنوي الخاص بفرنسا و الذي وضعته "اللجنة الوطنية الاستشارية لحقوق الإنسان" (CNCDH) سنة 2005، لبيان العدد الكبير للاعتداءات على أساس عنصري و ديني التي تعرض لها المغاربة و المسلمون في بلد حقوق الإنسان سنة 2004، حيث بلغت 352 اعتداء منها 266 تهديد و عنف لفظي و 64 اعتداءات مادية أو جسدية عنيفة⁽¹⁸⁾.

هذه الاعتداءات تهدد السلم الاجتماعي في البلاد، لأن النظرة المتعالية و الاحتقارية للمسلمين و خاصة المهاجرين المغاربة منهم، كانت وراء أحداث الضواحي بعد خطاب وزير الداخلية الفرنسي آنذاك "نيكولا ساركوزي"، الذي استعمل فيه لفظ "الحتالة" لوصف شباب الضواحي المهاجرين، و موضوع الهجرة هنا لا يمكن فصله عن ظاهرة "الإسلاموفوبيا"، لأن الاعتقاد السائد في أوروبا أن حركة الهجرة هي السبب الرئيسي في توطن الإسلام في فرنسا و أوروبا.

فأحداث نوفمبر 2006 التي وقعت في مختلف الضواحي الباريسية و عمت حتى باقي التراب الفرنسي، أعادت النظر في صراع لم يتوقف أبدا، و أطلق من جديد الحوار حول الاندماج (L'intégration)... و أصبح تجديد تصاريح الإقامة

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

مرتبط أكثر فأكثر بمدى الاندماج، و تم إصدار قانون في جويلية 2006 يوقف عمليات التسوية التلقائية للإقامة بمجرد مرور 10 سنوات على التواجد فوق التراب الفرنسي، وفي خطوة غير مسبوقة سارع "نيكولا ساركوزي" وبمجرد انتخابه رئيسا في 2007 إلى إنشاء وزارة لـ "الهجرة و الاندماج و الهوية الوطنية"، و هي خطوة مهمة في تطور سياسة الهجرة الفرنسية⁽¹⁹⁾.

و لعل أكثر ما يبرهن على وقوف "الإسلاموفوبيا" المستشرية في المجتمع الفرنسي وراء فتح حوار حول الهوية الوطنية، هو ذلك التزامن بين بداية الحوار من جهة و مناقشة مشروع قانون منع النقاب من جهة أخرى.

فبعد أن تم سن قانون لمنع الحجاب في المؤسسات التعليمية الفرنسية باعتباره من الرموز الدينية، مع مرور مشروع القانون على المؤسسات التشريعية التي وافقت عليه، و إمضاء الرئيس الفرنسي الأسبق "جاك شيراك" على القرار في 15 مارس 2004، و دخوله حيز التنفيذ في 02 سبتمبر 2004 مع الدخول المدرسي الجديد، سيقّت تبريرات عديدة للقانون باعتباره لا يمس الحجاب فقط بل كل الرموز الدينية الأخرى سواء كانت مسيحية أو يهودية أو غيرها، و لكن أغلبية الملاحظين اعتبروه قانونا موجها نحو الحجاب الذي ترتديه الفتيات المسلمات في المدارس الفرنسية، و لذلك عرف في وسائل الإعلام الأجنبية باسم "قانون منع الحجاب"، و هو القانون الذي جاء بناء على توصية من لجنة تحقيق بقيادة "برنارد ستاسي" حول السبل الكفيلة بالتطبيق العملي لمبادئ العلمانية بأمر من الرئيس "جاك شيراك"، و إن كان الجدل قد تركز حول الحجاب فإن ذلك يعود لاعتباره من قبل اللجنة رمزا دينيا و منافيا لمبادئ العلمانية و للمساواة بين الذكور و الإناث، و اعتباره من مظاهر القهر و التمييز ضد المرأة أو الفتاة المسلمة التي قد تدفع لارتدائه خارج إرادتها⁽²⁰⁾.

و هنا يبرز الإدراك السلبي للحجاب عند الغربيين، فكما يقول "غابريال مارونسي": "القضية الأساسية هنا ليست الحجاب في حد ذاته و دلالاته الإسلامية، بل رمزيته و غايته المتخيلة من قبل الغربيين"⁽²¹⁾.

الأستاذ: دندان عبد القادر

و هذا الإدراك السلبي ليس وليد اليوم، فأول مواجهة لفرنسا العلمانية مع الحجاب كانت سنة 1989 فيما عرف منذ ذلك الحين بـ "قضية الخمار" (Scarf's affair)، أين رفضت فتاتان نزع خمارهما الذي يعبر عن هويتهم الإسلامية مما أدى إلى إقصائهما من إجراء امتحان الدخول للمدرسة العليا، فأعادت هذه القضية الصراع بين التصورين الإدراكيين للعلمانية، التصور الأول الذي يرفض أي إمكانية لارتداء الزي الإسلامي في المدارس، مما يتوافق مع النظرة المغلقة التي ترفض أي مظاهر أو رموز دينية في المؤسسات العامة، و التصور الثاني الذي يدعو الجمهورية لعدم التخلي عن أبنائها إلا في حالة إتيانهم بما ينشر نفوذ الإسلام الراديكالي، و لكن في كلا الحالتين ظهور فتاتين في مقتبل العمر باللباس الإسلامي اعتبر كعلامة على فشل نظام الاندماج الفرنسي، وهو الفشل الذي يمهّد لإعادة أسلمة الضواحي⁽²²⁾.

منع الحجاب لم يكن إلا مقدمة لمنع النقاب في الأماكن العامة، و بغض النظر عن الجدل الفقهي حول مشروعية ارتداء النقاب من عدمها، فإن النظر إلى القضية من باب الحرية الشخصية يطرح إشكالا حول احترام الحريات الفردية في بلد الحريات، خاصة مع تزامن النقاش حول منعه مع بدء النقاش حول الهوية الوطنية.

فمن 8 جويلية 2009 إلى 26 جانفي 2010 جرت مداولات في إطار لجنة برلمانية مكونة من 32 نائبا بشأن فرض حظر على ارتداء النقاب أو البرقع في الأماكن العامة، فبالنسبة لمؤيدي الحظر الكامل لظهور النساء منقبات في الأماكن العامة، فإن هذا الأمر ضروري لحماية قيم الجمهورية، و المساواة بين الجنسين، و منع خطر انتشار الأصولية المضادة للقيم الفرنسية و المناهضة للعنصر الأبيض، أما بالنسبة لمعارضتي القرار من المسلمين و المنظمات الحقوقية فارتداء النقاب قضية هامشية، و لكن اللجنة البرلمانية تعمل كأداة لصرف الفرنسيين عن مشاكلهم الحقيقية الاقتصادية و الاجتماعية و تشويه صورة المسلمين في فرنسا... خصوصا أن العمدة الشيوعي "أندريه جيرن" (André Gerin) المعروف بعوائده للمهاجرين المغاربة و الذي ترأّس اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة الموضوع قد

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

أعطى بعدا عنصريا و عدائيا للموضوع حين صرح قائلا: "هل يجب علينا أن ندع المجال لعقيدة التيار السلفي الأصولي الذي يقود صراعا ضد فرنسا و العنصر الأبيض"، يحدث هذا في الوقت الذي تفيد فيه تقديرات وزارة الداخلية الفرنسية أن عدد المنقبات لا يتجاوز الألفين، في حين أفادت تقديرات لأجهزة الاستخبارات أن عددهن لا يتجاوز 367 امرأة في كامل البلاد⁽²³⁾.

و نفهم هذه النقطة أكثر عندما نستظهر خطابات "ساركوزي" التي رفض فيها النقاب و قبل ذلك الحجاب مكرسا الكثير من تدخلاته الإعلامية لقدسية الجمهورية و قيمها، فكل الدلائل تشير إلى وجود حالة استنفار فرنسية ضد الرافد الثقافي الإسلامي، و محاولة إيقاف مؤشرات تغلغله في الهوية الوطنية الفرنسية، و هو تكتيك يتقاطع مع اليمين المتطرف، و يغذي مخاوف فرنسا من تعاظم الوجود الإسلامي فوق أراضيها، و يحفز دفاعها المستميت عن المسيحية من جهة و العلمانية من جهة أخرى، رغم أن المظاهر الدينية التي يمارسها مسلمو فرنسا لا تتعد المجال الشخصي.

كما أن المتأمل في اقتراحات وزير الهجرة الفرنسي و التي قد تجد طريقها للتجسيد بعد نهاية النقاش حول الهوية، و المتمثلة في مشروع إنشاء عقد للاندماج الجمهوري يوقع عليه كل أجنبي يزور فرنسا أو يقيم فيها، إضافة إلى إخضاع منح الجنسية لشرط إتقان اللغة الفرنسية و هضم قيم الجمهورية و التمكن من أداء "المارسيانز"، كل هذه الأفكار تنطلق من افتراض مفاده أن المسلمين في فرنسا هم خارج المتن الثقافي الفرنسي، و أن مصلحة فرنسا تكمن في إيقاف تيار هجرة المسلمين الذين تزايد عددهم أكثر مما ينبغي، و أصبحوا يشكلون عبئا سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا على فرنسا، لذلك فإن إعلان فتح نقاش حول الهوية الوطنية يخفي في باطنه حيلة سياسية و أمنية للظفر بقوانين تتيح للسلطة حرية التصرف في النزيف الإسلامي داخلها، خصوصا أنه قبل سنوات قليلة أعلنت فرنسا أنها حولت وجهتها نحو هجرة النخب و المثقفين أي الهجرة الانتقائية التي تخدم مشروعها التنموي و الفرونكوفوني⁽²⁴⁾.

2-3 الاستغلال السياسي للإسلاموفوبيا ضمن حوار الهوية الوطنية: لم يخف على أحد الأهداف السياسية المتوخاة من فتح مثل هذا النقاش حول موضوع

الأستاذ: دندان عبد القادر

حساس بالنسبة للفرنسيين، فإثارة هذه القضية ترتبط بالإستراتيجية التقليدية لليمين الحاكم، الذي اعتاد التركيز على التخويف من المهاجرين لكسب أصوات أقصى اليمين على عتبة الانتخابات الجهوية التي كانت مقررة في مارس 2010. و في السياق ذاته لفت "محمد حنيش" الأمين العام لإتحاد المنظمات المسلمة بشمال باريس، إلى أنه من الطبيعي أن يكون لهذا الجدل أهداف سياسية، خاصة أنه يأتي شهرا واحدا قبل الانتخابات الجهوية (انتخابات المقاطعات) المقررة في مارس 2010، وتأتي هذه الانتخابات المرتقبة في الوقت الذي تواجه فيه حكومة "فرنسوا فيون" اليمينية مصاعب اقتصادية بسبب الأزمة المالية، فضلا عن الجدل الذي أثير بعد اعتزام الرئيس "ساركوزي" تعيين نجله على رأس أكبر مجمع اقتصادي في فرنسا، ثم عدل عن ذلك بسبب ضغوط المعارضة.

لهذا السبب أشار النائب المعارض عن حزب الخضر "نويل مامير" إلى أن: "فتح مثل هذا الحوار حول الهوية الوطنية هو عملية لتحويل الوجهة عن المشاكل الحقيقية التي يعاني منها الفرنسيون والمأزق الذي تعيش فيه الحكومة بسبب الأخطاء المتراكمة"، واعتبرت المعارضة الفرنسية بجميع تشكيلاتها أن الإعلان عن فتح مثل هذا الحوار "يراد منه جذب أصوات اليمين المتطرف استعدادا للانتخابات الجهوية القادمة"⁽²⁵⁾.

و الواقع أن موضوع الهوية قد سيطر على الحياة السياسية الفرنسية، منذ أن فاجأت الحملة الانتخابية لرئاسيات 2007 المتتبعين بتربع قضية "الهوية الوطنية" على طليعة الحوار السياسي، بعد أن كانت القضايا الرئيسية في انتخابات 1995 تدور حول البطالة و التفاوت الاجتماعي، و العام 2002 كانت الأولوية للقضايا الأمنية، غير أن المرشحين الثلاثة في انتخابات 2007 ركزوا بشكل أو بآخر على موضوع الهوية، و بالأخص المرشح الذي كان أوفر حظا للفوز بالانتخابات "نيكولا ساركوزي"⁽²⁶⁾.

لقد قدم "ساركوزي" مقترح إنشاء وزارة للهجرة و الهوية الوطنية، كتنويع لمسيرته على رأس وزارة الداخلية أين أقر قانونا جديدا صارما للهجرة، كما تبنى سياسة أمنية محضة في تعامله مع الضواحي غاب فيها أي وجود للحوار، و يعود

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

هذا إلى إيمانه بأن فرنسا ليست مجبرة على قبول هجرة مفروضة، بل من حقها اختيار من تريد استقبالهم، وإيمانه بأن الهجرة أصبحت تهدد الهوية الوطنية، مع تشويه اللغة الفرنسية في الضواحي حيث يستعمل المهاجرون المغاربة خصوصا لغة هجينة و بذئنة، إضافة لنمو التهديد الإرهابي و الخلايا الإسلامية بسبب الهجرة، و الحقد الدفين لدى المهاجرين المسلمين بالخصوص تجاه فرنسا، و هو ما عكسته أحداث الضواحي 2005، و التصفير على النشيد الوطني الفرنسي في مقابلة الجزائر و فرنسا... و هي الأحداث التي رأى فيها الكاتب الفرنسي "الآن فنكلكروت" عنصرية تجاه العنصر الأبيض في فرنسا، و العلمانية بدورها أصبحت مهددة من جراء الحضور المكثف للإسلام السياسي و لبعض التقاليد المنحدرة من الهجرة (الحجاب، النقاب، تعدد الزوجات و غيرها)... فالمتتبع للخطاب السياسي الفرنسي المؤكد على مفاهيم العلمانية و الجمهورية و حب فرنسا، يرى دائما ذلك الحديث عن الإسلام و المسلمين و عن صعوبة اندماجهم مع مبادئ الحداثة و العلمانية و مطالبة البعض بتغيير الإسلام، و كأن تغيير أي دين متوقف على قرار سياسي يتم اتخاذه⁽²⁷⁾.

"الإسلاموفوبيا" أصبحت مجالا للاستغلال السياسي خاصة من طرف اليمين المتطرف الذي يجد فيها استثمارا سياسيا حقيقيا، يضمن له أصوات المتوجسين من كل ما له علاقة بالإسلام و المسلمين، فهذا "جون ماري لوبان" زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية، الذي وجد نفسه لأول مرة سنة 2002 منافسا في الدور الثاني للانتخابات الرئاسية الفرنسية، قدم نفسه في خطابه الشعبية و "سياسته الإسلاموفوبية" (Islamophobic policy) باعتباره خط الدفاع الأخير ضد أسلمة فرنسا و أوروبا⁽²⁸⁾.

3-3 المأزق الفرنسي: البحث عن التجانس في مجتمع متعدد: المجتمع الفرنسي
مثله مثل أغلبية المجتمعات الغربية و نتيجة لعوامل تاريخية و ديموغرافية متعلقة بتيارات الهجرة بالخصوص، أصبح مجتمعا متعدد الأعراق و الثقافات و الأديان، و المفارقة أن هذه الخصوصية التعددية تتفاعل ضمن و أحيانا ضد

الأستاذ: دندان عبد القادر

خصوصية فرنسية معروفة تاريخيا و عالميا بقوتها و برغبتها الدائمة في التميز و التفوق و فرض منظورها و نموذجها على الآخرين.

و حوار الهوية الذي تم في ربوع البلاد، عكس خطابا إقصائيا لا يتناسب أبدا مع مجتمع متعدد مثل فرنسا و رفع حدة التوتر إلى مستويات عليا، لأنه يضع المهاجرين أمام معادلة صعبة، أين تجد هذه الفئة الرئيسية في المجتمع الفرنسي نفسها حسب "برهان غليون" في مأزق صعب، فمثلا ما هو المطلوب من المسلمين حاملي الجنسية الفرنسية حتى يكونوا فرنسيين؟ وهل هناك درجات في المواطنة الفرنسية بحسب مستوى وقوة التماهي مع الثقافة الفرنسية وقيم الجمهورية؟ هل المطلوب أن يتجرد المتجنسون من أصول أجنبية من شخصيتهم الثقافية المعنوية والمظهرية وينحوا نحو الفرنسيين الأصليين في اعتقاداتهم وتصرفاتهم ولباسهم وأكلهم وشربهم حتى يحظوا بحماية الدولة وممارسة حقوقهم الأساسية؟ وما هي وضعية أولئك الفرنسيين الذين تركوا المسيحية ليعتنقوا الإسلام وهم فرنسيون بالأصل؟

و يواصل المفكر "برهان غليون" تشرح المأزق الفرنسي الحالي، قائلا: "ليست هناك هوية خاصة من دون ثقافة خاصة مهما كان وضع هذه الثقافة، وإذا تم ربط الهوية الفرنسية كليا بالثقافة الفرنسية الأصلية التي هي ثقافة الأغلبية، أو إذا كان شرط المواطنة الفرنسية تطابق الهوية الثقافية لجميع الأفراد مع الثقافة الفرنسية الموروثة... فمن المؤكد أن العرب والأفارقة لن يكونوا فرنسيين ولن يصبحوا فرنسيين، فهم ظلوا يحملون على مدى ثلاثة أجيال أو أكثر ثقافتهم العربية والإفريقية من حيث القيم والأذواق والمشاعر والاعتقادات الدينية، وربما سيستمرون لفترة طويلة غير راغبين في تقمص شخصية الفرنسيين وقيمهم الخاصة، في هذه الحالة يطرح سؤال أساسي: لماذا يضع القانون اعتناق الهوية الثقافية الفرنسية كشرط للحصول على الجنسية؟"⁽²⁹⁾.

والآن تطفو إلى السطح في فرنسا مشكلة الارتباط بين الهوية الوطنية والتعددية الثقافية، على نحو يكاد يكون متماثلاً في المملكة المتحدة وهولندا والدنمارك وهي البلدان التي اختارت سياسة التعددية الثقافية منذ أمد بعيد، وعلى النقيض من فرنسا ففي الولايات المتحدة الدولة التي تشتمل على جاليات ضخمة من

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

المهاجرين، نجد أن المجتمعات قادرة على صياغة هوية ثقافية قوية وحس وطني راسخ عميق وكانت هذه هي الحال في فرنسا التي شيدت بفضل موجات متعاقبة من الهجرة، إلا أن التكامل في فرنسا على النقيض من الولايات المتحدة لا يقوم على الاستيعاب بل على الرغبة في تعزيز التجانس حيث تتوحد الأمة في كيان واحد لا يتجزأ، اليوم وفي هذا العالم الذي تغير بفعل العولمة، تواجه فرنسا ذلك التحدي العصيب المفروض عليها من قبل المهاجرين الجدد، والذي يتلخص في صيانة المبادئ التي تشكل صميم الهوية الفرنسية من جهة، وفي نفس الوقت تلبية رغبة بعض مواطنيها الجدد في الاحتفاظ بهويتهم الخاصة والتي قد تتعارض في بعض الأحيان مع هذه المبادئ، إن الحوار القائم اليوم بشأن الهوية الوطنية ينبع في الأساس من هذا التوتر⁽³⁰⁾.

و الاتجاه العام في فرنسا خاصة من قبل اليمين نحو إقصاء الآخر لاسيما المسلمين و التضييق على الدين الإسلامي بالخصوص و نشر هوس "الإسلاموفوبيا"، لا يخدم الوحدة الوطنية و تعزيز روح الانتماء للأمة الفرنسية الذي قام الحوار من أجله حسب الخطاب الرسمي و الذي كشف الواقع عكسه تماما، لأنه لا يمكن انتظار مطابقة كلية بين ثقافات الأقليات و ثقافة الأغلبية لأن مثل هذه المطابقة تعني فعليا محو الشخصية الجماعية و محو خصوصية الأقليات.

ولن يقدم شحن مشاعر الكراهية وتعميق روح العنصرية أي فرصة لتوحيد الأمة الفرنسية ولا لترسيخ هويتها الوطنية، بقدر ما يقوض أخلاقيات شعوب أوروبية هي صاحبة الفضل الأول في التاريخ المعاصر في نشر أفكار الحرية وحكم القانون والمساواة السياسية والأخلاقية والقانونية بين جميع المواطنين، فهوية فرنسا الوطنية كبقية الأمم والشعوب ليست محفورة في جينات الفرنسيين، لكنها ما يصنعه التاريخ ويحوره عبر التفاعلات الكثيرة على مستوى انتقال البشر والأفكار والأذواق والسلع والخدمات... و الذين يريدون بقاءها جامدة يحكمون على فرنسا بالموت وبخيانة قيمها الجمهورية التي يدافعون عنها⁽³¹⁾.

4-3 الخصوصية الفرنسية في مواجهة تيارات العولمة: وجد الكثير من المختصين صلة وصل بين الحوار الذي جرى حول الهوية في فرنسا و اشتداد تأثير تيارات العولمة على الخصوصية الثقافية و الهوياتية الفرنسية المهددة بفقدان مكانتها التاريخية كمركز تأثير ثقافي و تميز حضاري.

كان المؤرخ "إرنست رينان"، أول من فكر في مسألة الهوية الوطنية في أعقاب هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية في العام 1871، وقد دافع عن الأمة باعتبارها "روحاً واحدة" مؤلفة من شقين: الشق الأول يتلخص في "الميراث الخصب من الذكريات" الذي يضرب بجذوره في الماضي، أما الشق الثاني الذي يرتبط بالحاضر وتمهيد الطريق إلى المستقبل، فإنه يتألف من الإرادة المشتركة من جانب المواطنين لبناء حياتهم المشتركة معاً.

واستناداً إلى وجهة النظر هذه فإن الهوية الوطنية تشكل "مفهوما روحانيا" يعتمد على التاريخ المشترك ومجموعة من القيم، وبعض هذه القيم راسخ في نوع من المسيحية العلمانية، وبعضها الآخر في المعتقدات الثورية التنويرية المرتبطة بحقوق الإنسان و المساواة و اللغة الفرنسية و المدارس العلمانية، وفكرة مسؤولية الدولة عن المصالح المشتركة وتطبيق المبادئ الجمهورية.

وهذه النظرة إلى الهوية الوطنية التي تسمو على العرق واللون والأصل والدين هي التي أصبحت محلاً للنزاع الآن، وتتغذى أزمة الهوية التي تؤرق فرنسا الآن مع اقتران وتزامن العديد من العوامل على رأسها، العولمة وما نتج عنها من شكوك، والإتحاد الأوروبي الذي يقلص من حريات الزعامات الوطنية، والهيمنة الإستراتيجية الأمريكية التي أدت إلى تراجع الموقف الفرنسي في العالم، ونهوض القوى الآسيوية، وكل هذا يشكل تحدياً خطيراً للمفكرين الذين يستهزئون أحياناً بفكرة الأمة ذاتها، فيزعمون أننا نسكن الآن عالم "ما بعد القومية"، وهم يرون أن الهوية الوطنية لابد أن تُهجر لصالح الهوية الأوروبية، حتى لو لم يكن الشعور بالانتماء إلى أوروبا راسخاً بين شعوب الاتحاد الأوروبي⁽³²⁾.

ليس سؤال الهوية بالسؤال الجديد ضمن هواجس و انشغالات الفرنسيين إذا، و لكنه يطرح اليوم ضمن سياق جديد و في ظل ضغوطات جديدة تمارسها

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

العوامل البنيوية و النسقية التي يفرضها عصر العولمة بما فيه من تأثيرات و تحديات.

فمن بين كل الدول الغربية المتطورة، تبدو فرنسا اليوم البلد الأكثر تأثراً وعلى نطاق واسع و غير مسبوق بالنتائج والانعكاسات العرضية للعولمة على المستوى الثقافي، وهي انعكاسات أشد وطأة على العقول والنفوس من تلك الحاصلة على المستويات الاقتصادية والمالية والتكنولوجية، إذ يجري في فرنسا اليوم بصورة عامة تمثل الديناميات الشمولية للعولمة كعوامل كاسحة، تخلخل وتهز بعنف ما ظل على امتداد عقود ممتدة وأجيال متلاحقة يرى كعناصر أساسية بل وتكوينية للهوية الفرنسية في مضامينها السياسية والثقافية والحضارية.

و قد لاحظ المتابعون للحوار درجة الاحتقان التي تشتد كلما أثرت على موائد الحوار قضايا تتصل بمفهوم الهوية في مجتمع ينحو بنيويا باتجاه التعدد الثقافي بكل تبعاته، بفعل معطيات موضوعية صنعتها تيارات الهجرة على مدى زمني طويل، تعددية تسرع العولمة اليوم من وتيرتها ومن مداها، بصرف النظر عن الاختيارات المعلنة أو المرجعية المذهبية للزعماء والقادة⁽³³⁾.

و يلخص الفيلسوف الكبير "مارسيل غوشي" حالة التخبط التي توجد فيها بلاده اليوم في رحلة بحثها عن هويتها، فيؤكد أن الخصوصية الفرنسية التي تتميز بقوتها تجد صعوبة اليوم في استيعاب نوع التغيير الذي تتطلبه العولمة كي تختصر على نفسها المسافات، ففرنسا تشهد اليوم جمودا تاريخيا يشمل جميع المجالات، و إنما لا نبالغ - على حد قول "مارسيل غوشي" دائما- إذا تحدثنا عن نوع من خيبة الأمل الجماعية، فالكثير من الناس لهم الانطباع بأنهم مسجونون داخل صيرورة معاكسة لاتجاههم بينما هم عاجزون على أن يفعلوا شيئا، علما بأن تلك الصيرورة تعني لهم الموت، أو أنها تعني موت ما هم متشبثون به سياسيا وثقافيا وحضاريا (أي الإرث التاريخي و الحضاري الفرنسي)... فقد داهم التطور العالمي الفرنسيين فأضحى كل ما يطلب منهم مناقضا لمكتسبهم التاريخي، و لم يعد بإمكانهم تأكيد نموذجهم التاريخي والسياسي⁽³⁴⁾.

الأستاذ: دندان عبد القادر

مكمن الورطة التي تتخبط فيها الخصوصية الفرنسية في مواجهة العولمة، يتمثل في ذلك التناقض بين الرؤية التي يحملها الفرنسيين تاريخيا عن دور بلدهم كمركز أولي لبلورة قيم تتسم بالعالمية حسيم، و بين اتجاه آخر مناقض تماما للتوجه الفرنسي أي اتجاه ديناميات العولمة التي ترفض كل إمكانية لتصور مركز واحد - مهما كانت له من عوامل النفوذ في الحاضر أو من عناصر الشرعية التاريخية في الماضي- له إمكانية تحديد المعايير والأنماط و التوجهات، أي رفض فكرة المركزية الثقافية.

فإشكالية الهوية المطروحة في فرنسا اليوم هي انعكاس للتخوف من ضياع ما طبع الذاكرة الفرنسية منذ حوالي قرنين، أي موقع المركز العالمي الموجه على المستوى الثقافي، فتسارع وتيرة العولمة أصبح يهدد اليوم ثلاثة مبادئ موجهة للهوية الفرنسية، و هي الاندماج (في التعامل مع الهجرة) و العلمانية (في ضبط العلاقة بين ما هو ديني و ما هو دنيوي) و المرفق العام (في مجال تدبير الخدمة العامة)، في كل هذه المستويات يتعرض النموذج الفرنسي لضغوطات غير مسبوقة، فمطلب الاندماج المفروض على المهاجرين خاصة غير الأوروبيين (من بينهم المسلمين) يفضي إلى إلغاء و تهميش حق الاختلاف، و اللاتكثية بالشكل الراديكالي المتشدد أبرزت مخاطر الانزلاق لخدمة دعاوى لا علاقة لها بالفصل بين الدين و الدولة، مثل قضية الحجاب (و بعدها النقاب)، و المرفق العام الذي يحيل إلى مفهوم معين للمساواة، دخل في تناقض مع مبدأ تكافؤ الفرص في مجتمعات متعددة التصنيف الاجتماعي كالمجتمعات الغربية⁽³⁵⁾.

الحوار حول الهوية الوطنية في فرنسا يمكن النظر إليه إذا كنوع من رد الفعل و الانكفاء على الذات و حول الهوية الثقافية و حول القومية الفرنسية أمام عولمة جارفة آتية على خصوصية الكيانات الوطنية، و توضع القيم الإسلامية هنا في الاعتبار لدى الفرنسيين كعامل تهديد للخصوصية الفرنسية (الخوف من أسلمة البلاد).

الخاتمة: إسلاموفوبيا آخذة في التغلغل في أعماق الفرنسيين، و حوار حول الهوية الوطنية بعد كل هذا الزمن، و عجز عن ضمان التجانس المنشود في مجتمع متعدد، و يمين متطرف صاعد، و تشتت بين الخصوصية المحلية و

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

الانتماء الأوروبي و العولمة، هذه كلها سمات مجتمع فرنسي يعيد البحث عن هويته من جديد، بعد أن أصبح الإسلام الدين الثاني فيه، و تحول إلى مكون أساسي في ثقافة و أسلوب حياة قسم كبير من مواطنيه سواء كانوا فرنسا في الأصل أو من المهاجرين ذوي الأصول غير الفرنسية.

بلد الحريات و حقوق الإنسان يعيش اليوم مفترقا تاريخيا حاسما، فإما إيجاد التوليفة القادرة على ضمان استيعاب الوجود الإسلامي و جعل الإسلام أمرا جاد عاد في المجتمع الفرنسي على حد قول "بنجامين سطورا"، و الاعتراف بحق المسلمين في الحفاظ على هويتهم و تميزهم الحضاري مع احترام قيم المجتمع الذين يعيشون فيه، و القدرة على خلق روح الفخر بالانتماء للأمة الفرنسية في نفوسهم، و هو ما يتحقق بسياسة حكيمة لاستيعابهم و ليس فرض التجانس عليهم مع قيم علمانية كاثوليكية غريبة عنهم أو تهميشهم كليا في الضواحي الفقيرة.

و إما في حال الفشل في الوصول إلى هذه التوليفة، القبول بسيادة المنظور اليميني القائم على سياسة فرض التجانس و فرض القيم الفرنسية في مجتمع متعدد، و هو ما لن يخدم فرنسا و سيشوه صورتها التاريخية، لأن سياسات الضغط و الإكراه و نشر الكراهية تجاه الإسلام و المسلمين المتبعة حاليا لن تساعد على الاندماج و لا على تقريب الأقليات و خاصة المسلمة منها مع الأغلبية الفرنسية التي تمارس هذه السياسة، و لا علاج لانعزال الأقليات سوى تطمينها على حقوقها ووجودها واحترام شخصيتها واعتقاداتها، بما يعنيه ذلك من فرص مفتوحة لارتقاء أفرادها في السلم الاجتماعي ومن مشاركة متزايدة في المسؤوليات العمومية، واحترام خصوصيتها بدلا من تبني "سياسات إسلاموفوبية" كتلك التي يتبناها اليمين المتطرف، و التي راح حوار الهوية الوطنية ضحية لها و أصبح معبرا عن النهج الإقصائي والعنصري تجاه الإسلام و المسلمين بالدرجة الأولى.

, In: Ellis Cashmore **"ISLAMOPHOBIA"**1- Elizabeth Poole, (ed), **Encyclopedia of race and ethnic studies**, Routledge Taylor&Francis group, London and New York, First published 2004, p 215.

Islamophobia and anti-discrimination "2- Rachel A. D. Bloul, **laws: ethnoreligion as a legal category in the UK and** National Europe Centre Paper, No. 78, February **"Australia** 2003, University of Sydney, Australia, p. 10.

Understanding Islamophobia: "3- Zafar Iqbal, , European " **measuring the construct Conceptualizing and** Journal of Social Sciences: Volume 13, Number 4 (2010), p.p. 577,578.

4- **"The 2nd OIC OBSERVATORY REPORT ON ISLAMOPHOBIA"**, Issued at the 36th council of foreign ministers, Damascus, June 2008 to April 2009, p. 1.

5- صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات و إعادة بناء النظام العالمي، ترجمة: مالك عبيد أبو شهيو و محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلان، بنغازي، الطبعة الأولى، 1999، ص ص 370-372

EUROCENTRISM AND "6- Saied Reza Ameli, , Islamic Human Rights Commission, **"ISLAMOPHOBIA** United Kingdom, October 1997, p. 1.
7- Zafar Iqbal, OP.Cit, p. 575.

Multiculturalism, islam and the clash "8- Gabriel Marrancie, , culture and **"of civilizations theory: rethinking Islamophobia** religion: vol. 5, N° 1, 2004, p. 109.

9- **"Muslim Women in France At the Turn of the Millennium"**, 2003 report available in: "cat.inist.fr/?aModele=afficheN&cpsidt=15406029".

10- Camille Froidevaux-Metterie, **"The Ambiguous Position of French Muslim Women: Between Republican Integration and Religious Claims"**, University Pantheon-Assas Paris II, 2010, available in:

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

"www.psa.ac.uk/journals/pdf/5/2010/1353_1271.pdf".

Islam in France: The shaping of a "- Jocelyne Cesari, 11
, in: Yvonne Haddad-Yazbek (ed), Muslims "**religious minority**
in the west, from sojourners to citizen, Oxford university press,
London, 2002, p. 36.

12- هادي محمد، "فرنسا تبحث عن هويتها الوطنية"، عن موقع إسلام أون
لاين، بتاريخ 28 أكتوبر 2009، في:

"

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1256034053250&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayout

13- فرانك رينوت، "النقاش الفرنسي حول الهوية ... نغمة ناشزة"، تقرير
إذاعة هولندا الدولية، بتاريخ 10 فيفري 2010، في:
"14- هادي محمد، "حوار
عن هوية فرنسا أم هوية مسلمها؟"، عن موقع إسلام أون لاين، بتاريخ 14
ديسمبر 2009، في:

"http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout&cid=1260257947058#ixzz13GdY2bjF".

15- محمد كشت، "سؤال الهوية من الفلسفي إلى السياسي"، 10 جانفي
2010، في: "<http://www.awsatnews.net/?p=19931>".

16- بنجمان سطورا، "من النقاش حول مكانة الهوية الفرنسية إلى الحديث
عن مكانة الإسلام بفرنسا"، جريدة الإتحاد الاشتراكي المغربية، 26/01/2010،
في:

"<http://www.maghress.com/alhoudoude/327.jsessionid=F82E4D016CE3C545529BF6B662A479>".

17- Jocelyne Cesari, Op.Cit, p. 37.

18- "Muslims in the European Union: Discrimination and Islamophobia", Annual report of The EUMC 2006, Austria: Printer Mans Crossmedia GmbH & Co KG, p. 73.

19- Catherine Wihtol de Wenden, Julie E. Bourgoignie et Elisabetta Salvioni, **Mesurer l'intégration: le cas de France**.
p. 26. Rapport final, Sciences-po CERI, Paris, mars 2008,

20- **"French law on secularity and conspicuous religious symbols in schools"**, From Wikipedia, the free Encyclopedia, January 2009, available in:

"http://en.wikipedia.org/wiki/French_law_on_secularity_and_conspicuous_religious_symbols_in_schools".

21- Gabriel Marrancie, Op.Cit, p. 111.

22- Camille Froidevaux-Metterie, Op.CIT.

The background to the French parliamentary "23-

paper N°. 3, , Briefing"commission on the Burqa and Niqab

April 2010. P. 1.

24- آمال موسى، "إنقلاب أبيض في فرنسا" صحيفة الشرق الأوسط، عدد 11319، 24 نوفمبر 2009.

25- هادي يحمّد، "فرنسا تبحث عن هويتها الوطنية"، مرجع سابق.

26- رافايل هاداس، "فرنسا و سياسات الهوية"، صحيفة الوقت البحرينية، عدد 422، 18 أبريل 2007.

27- عادل لطيفي، "الهجرة و الإسلام و الهوية الوطنية في الانتخابات الفرنسية"، عن موقع الجزيرة نت، بتاريخ 2007/1/12، في:

"http://aljazeera.net/NR/exeres/6057B926-A58E-42C2-9075-B72BAB32BA02.htm?wbc_purpose=%2F".

28- Gabriel Marrancie, Op.Cit, p. 112.

29- برهان غليون، "هوية فرنسا: الاستثمار الانتخابي لليمين"، عن موقع الجزيرة نت، بتاريخ 16 ديسمبر 2009، في:

<http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=4970>

30- رافايل هاداس، مرجع سابق.

31- برهان غليون مرجع سابق.

32- رافائيل هاداس، مرجع سابق.

الإسلاموفوبيا و حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أبعاد ودلالات

33- عبد الرحمان العمراني، "نقاش الهوية في فرنسا بين إرث النزعة العالمية و ضغط العولمة"، جريدة الإتحاد الاشتراكي المغربية، 2010/6/1، في:

"

http://ailmaroc.net/def.asp?codelangue=29&id_info=109046&date_ar=2010-6-2

34- مارسيل غوشي، "أزمة الهوية و الوعي الجماعي في الغرب: النموذج الفرنسي"، ترجمة: سعيد الشطي، جريدة الأحداث المغربية، 12 مارس 2006، نقلا عن صحيفة ليبريسيون الفرنسية، في:

"<http://www.imezran.org/mountada/viewtopic.php?f=22&t=712>"

35- عبد الرحمان العمراني، مرجع سابق.